

تفسير ابن كثير

وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ^ج حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ^ط
قَالُوا الْحَقَّ ^ط وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ

وقال : (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) أي : لعظمته [وجلاله] وكبريائه لا يجترئ أحد أن يشفع عنده تعالى في شيء إلا بعد إذنه له في الشفاعة ، كما قال تعالى : (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) [البقرة : 255] ، وقال : (وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء [ويرضى]) [النجم : 26] ، وقال : (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) [الأنبياء : 28] . ولهذا ثبت في الصحيحين ، من غير وجه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو سيد ولد آدم ، وأكبر شفيع عند الله - : أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلهم أن يأتي ربهم لفصل القضاء ، قال : " فأسجد الله فيدعني ما شاء الله أن يدعني ، ويفتح علي بمحامد لا أحصيها الآن ، ثم يقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعطه واشفع تشفع " الحديث بتمامه . وقوله : (حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال

ربكم قالوا الحق) . وهذا أيضا مقام رفيع في العظمة . وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي ،
سمع أهل السماوات كلامه ، أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي . قاله ابن مسعود
ومسروق ، وغيرهما . (حتى إذا فزع عن قلوبهم) أي : زال الفزع عنها . قال ابن عباس ،
وابن عمر وأبو عبد الرحمن السلمي والشعبي ، وإبراهيم النخعي ، والضحاك والحسن ،
وقتادة في قوله تعالى : (حتى إذا فزع عن قلوبهم) يقول : جلي عن قلوبهم ، وقرأ بعض
السلف - وجاء مرفوعا - : " [حتى] إذا فرغ " بالغين المعجمة ، ويرجع إلى الأول . فإذا
كان كذلك يسأل بعضهم بعضا : ماذا قال ربكم ؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم
، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم ، حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا؛ ولهذا قال : (قالوا
الحق) أي : أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ، (وهو العلي الكبير) . وقال
آخرون : بل معنى قوله : (حتى إذا فزع عن قلوبهم) يعني : المشركين عند الاحتضار ،
ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة في الدنيا ، ورجعت إليهم عقولهم يوم
القيامة ، قالوا : ماذا قال ربكم ؟ فقيل لهم : الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين في
الدنيا . قال ابن أبي نجیح ، عن مجاهد : (حتى إذا فزع عن قلوبهم) : كشف عنها الغطاء

يوم القيامة .وقال الحسن : (حتى إذا فزع عن قلوبهم) يعني : ما فيها من الشك والتكذيب

. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (حتى إذا فزع عن قلوبهم) يعني : ما فيها من

الشك ، قال : فزع الشيطان عن قلوبهم وفارقهم وأمانهم وما كان يضلهم ، (قالوا ماذا قال

ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير) قال : وهذا في بني آدم ، هذا عند الموت ، أقرأ

حين لا ينفعهم الإقرار .وقد اختار ابن جرير القول الأول : أن الضمير عائد على الملائكة .

هذا هو الحق الذي لا مرية فيه ، لصحة الأحاديث فيه والآثار ، ولنذكر منها طرفا يدل

على غيره :قال البخاري عند تفسير هذه الآية الكريمة في صحيحه : حدثنا الحميدي ،

حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو ، سمعت عكرمة ، سمعت أبا هريرة يقول : إن نبي الله صلى

الله عليه وسلم قال : " إذا قضى الله الأمر في السماء ، ضربت الملائكة بأجنحتها

خضعانا لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟

قالوا للذي قال : الحق ، وهو العلي الكبير فيسمعها مسترق السمع ، ومسترق السمع - هكذا

بعضه فوق بعض - ووصف سفيان بيده - فحرفها وبدد بين أصابعه - فيسمع الكلمة ،

فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو

الكاهن ، فرما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها
مائة كذبة ، فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : كذا وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة
التي سمعت من السماء .انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم من هذا الوجه . وقد رواه أبو
داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، من حديث سفيان بن عيينة ، به .حديث آخر : قال الإمام
أحمد : حدثنا محمد بن جعفر وعبد الرزاق : أخبرنا معمر ، أخبرنا الزهري ، عن علي بن
الحسين ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم [جالسا] في نفر من
أصحابه - قال عبد الرزاق : " من الأنصار " - فرمى بنجم فاستنار ، [قال] : " ما كنتم
تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية ؟ " قالوا : كنا نقول يولد عظيم ، أو يموت عظيم -
قلت للزهري : أكان يرمى بها في الجاهلية ؟ قال : نعم ، ولكن غلظت حين بعث النبي
صلى الله عليه وسلم - قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فإنها لا يرمى بها
لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا ، تبارك وتعالى ، إذا قضى أمرا سبح حملة العرش]
ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح هذه الدنيا ، ثم يستخبر أهل السماء
الذين يلون حملة العرش ، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش [: ماذا قال ربكم

؟ فيخبرونهم ، ويخبر أهل كل سماء سماء; حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء ، وتخطف

الجن السمع فيرمون ، فما جاءوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون .
هكذا رواه الإمام أحمد . وقد أخرجه مسلم في صحيحه ، من حديث صالح بن كيسان ،

والأوزاعي ، ويونس ومعتل بن عبيد الله ، أربعتهم عن الزهري ، عن علي بن الحسين ،

عن ابن عباس عن رجل من الأنصار ، به . ورواه وقال يونس : عن رجال من الأنصار ،

وكذا رواه النسائي في " التفسير " من حديث الزبيدي ، عن الزهري ، به . ورواه الترمذي

فيه عن الحسين بن حريث; عن الوليد بن مسلم ، عن الأوزاعي ، عن الزهري ، عن عبيد

الله بن عبد الله ، عن ابن عباس ، عن رجل من الأنصار ، رضي الله عنه ، والله أعلم

.حديث آخر : قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عوف وأحمد بن منصور بن سيار

الرمادي - والسياق لمحمد بن عوف - قالا حدثنا نعيم بن حماد ، حدثنا الوليد - هو ابن

مسلم - عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، عن عبد الله بن أبي زكرياء ، عن رجاء بن

حيوة ، عن النواس بن سمعان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا أراد الله

أن يوحي بأمره تكلم بالوحي ، فإذا تكلم السماوات منه رجفة - أو قال : رعدة -

شديدة; من خوف الله ، فإذا سمع بذلك أهل السماوات صعقوا وخرّوا الله سجدا ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، فيمضي به جبريل على الملائكة ، كلما مر بسماء سماء سألها ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول : قال : الحق ، وهو العلي الكبير . فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهي جبريل بالوحي حيث أمره الله من السماء والأرض " . وكذا رواه ابن جرير وابن خزيمة ، عن زكريا بن أبان المصري ، عن نعيم بن حماد ، به . قال ابن أبي حاتم : سمعت أبي يقول : ليس هذا الحديث بالشام عن الوليد بن مسلم ، رحمه الله . وقد روى ابن أبي حاتم من حديث العوفي ، عن ابن عباس - وعن قتادة : أنهما فسرا هذه الآية بابتداء إichاء الله سبحانه إلى محمد صلى الله عليه وسلم بعد الفترة التي كانت بينه وبين عيسى ، ولا شك أن هذا أولى ما دخل في هذه الآية .